هياكل النور

للسهروردي الإشراقي



مقدمة عامة
ودراسة تحليلية للنص

بسم الله الرحمن الرحيم

نبدأ هذه السلسلة بنشر كتاب «هياكل النور» للسهروردي الإشراقي راجين أن تسد فراغاً في المكتبة العربية الفلسفية، إذ من الملاحظ بصفة عامة أن جهود معظم الباحثين في هذا النوع من الدراسات قد توجهت إلى المدرسة المشائية الإسلامية وعلم الكلام، وأغفل بذلك ـ أو كاد ـ جانب مشرق قوى من الفكر الإسلامي يجمع بين الفلسفة والتصوف. وإذا كان الباحثون في الغرب ـ أعني المستشرقين ـ قد عكفوا على دراسة هذا التيار العميق الجذور في الثقافة الإسلامية فيجدر بنا ونحن حملة هذه الثقافة إلى العالم الحديث أن نوجه قدراً من اهتمامنا إلى الكشف عن أصول هذه النزعات فقد ظهر أنها تداخلت تداخلاً وثيقاً في معتقدات بعض الفرق الإسلامية، إذ أن الإشراقية قد اتصلت بالتشيع وتفاعلت معه، وظل هذا التأثير واضحاً إلى عصرنا هذا، وإذن فهناك حافز حضاري معاصر إلى جانب الحافز الأكاديمي البحت مما يدفعنا إلى بذل الجهد المتواصل لإحياء هذا التراث القديم، وإذا كان اختيار ناقد وقع على هذا الكتاب بالذات فهو أنه يعد توطئة لا بد منها لدراسة المذهب الإشراقي في عمقه وأصالته فضلا عن أنه يعد دستوراً لبعض الفرق الصوفية التي تفرعت على المدرسة الإشراقية كالطريقة النوربخشية مثلا.

ولا يفوتنا في هذا المقام أن نتوجه بالشكر وعرفان الجميل إلى أستاذنا العلامة لويس ماسينيون على ما بذله من جهد في التوجيه والمعاونة على إخراج هذا النص،

كما نشكر الأستاذ روبرت برنشفيج الأستاذ بالسربون على معاونته في إصدار ترجمة لهذا الكتاب.

وبعد فنرجو أن يكون هذا السفر المحدود الصفحات، الجليل الفائدة حافزاً للباحثين إلى توجيه أكبر جهد إلى هذا الميدان البكر من الدراسات الإسلامية.

والله الموفق سواء السبيل

الإسكندرية ١٠ من المحرم سنة ١٣٧٦هـ
١٧ من أغسطس سنة ١٩٥٦م
محمد علي أبو ريان

الفصل الأول

السهروردي وعصره

مؤلف هذا الكتاب هو الحكيم الإشراقي الحلبي أبو الفتوح يحي ابن حبش بن أميرَك الملقب بشهاب الدين السهروردى المقتول، وقد تواترت هذه التسمية عن جمهور المؤرخين الذين ينزعون منزع أهل السنة ويعدون آراء السهروردي مروقاً عن العقائد الصحيحة للسلف الصالح، أما تلامذة الشيخ وأتباعه فإنهم قد اعتبروه شهيداً للفكر وللعقيدة الإشراقية ولذلك فإنهم يضيفون إلى اسمه كلمة «شهيد» بدل وصفه بأنه «مقتول».

ولا يجب أن نخلط بين السهروردي الإشراقي وغيره ممن تسموا بهذا الاسم من الفقهاء الصوفية فمنهم:

أبو النجيب عبد القادر عبد الله بن عمويه الفقية الصوفي الملقب بضياء الدين السهرزورى المتوفى في بغداد سنة ٥٦٣هـ، ثم صاحب «**عوارف المعارف**» المسمى أبو حفص عمر بن محمد بن عبد الله ابن محمد بن عمويه الصوفي والفقيه الشافعي المتوفى سنة ٦٣٣هـ.

طفولة السهروردي:

لا تشير المراجع بالتفصيل إلى أسرة السهروردي أو إلى طفولته أو ظروف تلقيه العلم، بل إن الشهرزوري (١٢٥٠م/ ٦٨٠هـ) تلميذه المباشر لا يهتم كثيراً بإيراد تفاصيل عن حياة شيخه.

ولد السهروردى بين سنوات ٥٤٥، ٥٥٠هـ في بلدة سهرورد في إقليم «الجبال» بالقرب من زنجان فيما كان يعرف بعراق العجم. وقد اتفقت المراجع كلها على أن الشيخ الإشراقي درس الفقه والفلسفة المشائية على يد الشيخ مجد الدين الجيلي في مراغة من أعمال أذربيجان وكان مجد الدين الجيلي أستاذاً للفخر الرازي، وقد دارت مساجلات بين الفخر الرازي والسهروردي ويذكر ابن خلكان أن السهروردي تلقى العلم على الشيخ مجد الدين وانتفع بصحبته.

وقد انتقل السهروردي بعد ذلك من مراغة إلى أصفهان حيث قرأ بصائر ابن سهلان على الظهير الفارسي، ويشير الشهرزوري إلى أن شيخه قد تأثر كثيراً بكتاب البصائر هذا.

على أن أهمية مقام الشيخ في أصفهان ـ وكانت مركزاً هاماً للفلسفة المشائية الإسلامية ـ ترجع إلى أنه قد اتصل فيها اتصالاً مباشراً بمذهب ابن سينا فترجم رسالة **الطير** من العربية إلى الفارسية، وكتب فيما بعد شرحاً على «**الإشارات**» ومما يؤيد رأينا أيضا في أن الشيخ كان يحيا في مطلع شبابه في جو فكري يموج بالمشائية، هو اتصاله المستمر بشيوخ المشائيين ففي سفرة له إلى ماردين اتصل بالشيخ المشائي فخر الدين المارديني وتتلمذ عليه واستفاد منه.

وتذكر المراجع ـ وعلى الأخص الشهرزوري ـ أن الشيخ كان يفضل الإقامة بديار بكر حيث اتصل بأمير خربوط عماد الدين قلج أرسلان وأهدى إليه كتاب «**الألواح العمادية**».

ويبدو أن الشيخ كان مولعاً بالسفر فهو يذكر عن نفسه أنه قد بلغ سنه ثلاثين سنة وقد قضى معظم عمره في السفر والترحال بحثاً عن العلم والعلماء.

السهروردي في حلب:

انتهى المطاف بالشيخ إلى حلب في فترة الحروب الصليبية وأثناء حكم الملك الظاهر بن صلاح الدين الأيوبي، وهنا أيضاً نجد المراجع تعود فتغفل تفاصيل حياة

الشيخ في حلب حيث حوكم ولقي مصرعه، وتكتفي بإيراد قصص عن كراماته تناقلها المؤرخون لفظاً ومبنى.

ويورد ابن أبي أصيبعة رواية للشيخ سديد بن رقيقة ليصف لنا فيها مقتل الشيخ، فيذكر أن السلطان الظاهر بن صلاح الدين دعا الفقهاء إلى مساجلة السهروردي فانتصر عليهم وأفحمهم مما أحقدهم عليه فدبروا له تهمة المروق عن الدين مما حفز السلطان إلى الحكم عليه بالموت.

ولكن مؤرخاً واحداً يذكر لنا قصة مقتله بالتفصيل وهو العماد الأصفهاني المعاصر لصلاح الدين الأيوبي، فيذكر أن الفقهاء دعوا السهروردي للمناقشة في المسائل الفقهية وفي مسائل الأصول فظهر عليهم، فحقدوا عليه وبيتوا أمرهم على الثأر منه فدعوه إلى مناقشة علنية أخرى في مسجد حلب وسألوه: هل يقدر الله على أن يخلق نبياً آخر بعد محمد؟

فأجابهم الشيخ بأن «لا حد لقدرته» ففهموا من إجابته أنه يجيز خلق نبي بعد محمد وهو في نظر الإسلام «خاتم النبيين» ومن ثمت فقد أعلنوا مروقه عن الدين وعملوا محضراً بكفره سيروه إلى صلاح الدين الذي أمر بإعدامه وإحراق كتبه سنة ٥٨٨هـ وقد اختلفت الروايات في الصورة التي تم بها هذا الإعدام.

فبعض الرواة يذكر أنه تُرِّك في قلعة حلب حتى هلك جوعاً وبعضهم يقول إنه أرسل إلى قلعة القاهرة حيث أمر صلا ح الدين بقطع رقبته، ومهما يكن من شيء فإنه من الثابت قطعاً أن موته تم بناء على أمر صادر من صلاح الدين.

وإذا حللنا إجابة «الشيخ» من الناحية الفلسفية البحتة نجد أنه كان لا يريد أن يحد القدرة الالهية، فالإرادة الإلهية مطلقة وإجابة السهروردي بإمكان خلق نبي بعد محمد تشير إلى مطلق الإمكان.

والواقع أن الشيخ يخفي وراء هذه الإجابة الموجزة نظرية خطيرة في الإمامة عند الباطنية يشير إليها في حذر في مقدمة كتاب حكمة الإشراق. وبحسب هذه النظرية الإمامة عالمية تبدأ منذ بداية الخليقة، وتشمل جميع الأمم والديانات،

وللإمام وظيفة مزدوجة: فمن ناحية هو القائم «بالتعليم» في عصره، ومن ناحية أخرى هو إحدى الدعامات المتيافيزيقية التي يقوم عليها بناء الكون، وهذه الصفات تنطبق تماماً على ما يعرف بالقطب عند الصوفية وهو العامل الجوهري في حفظ الكون وتكامله، يجب إذن أن يوجد في كل عصر «إمام» وهو إما أن يكون ظاهراً له الرياستين الدينية والزمنية أو الأولى فقط، وإما أن يكون مستتراً. ويسمى السهروردي الإمام الكامل في الحكمتين العملية والنظرية «بالحكيم المتأله»

Theosophos وهو في نظره أسمى درجة من النبي ذلك لأنه بينما نجد النبي قادراً على تلقي الوحي فحسب نجد الإمام بالإضافة إلى ذلك مبرزاً في الحكمة النظرية وهذا ما دعا ابن تيمية إلى مهاجمة مذهب السهروردي الذي يرى فيه معارضة صريحة للمذهب السني مما يلقي ضوءاً كبيراً على ظروف مقتله.

الفصل الثاني

منزلة كتاب «هياكل النور»بين مؤلفات السهروردي

حاول كثير من المستشرقين تبويب أو تصنيف كتب السهروردي نذكر منهم Spies سبيز، Ritler ريتر، Massignon ماسنيون وخيراً Corbin كوربان.

كانت محاولات كل من سبيز وريتز أقرب إلى التنقيب عن مؤلفات الشيخ منها إلى تبويب هذه المؤلفات.

١ ـ تصنيف ماسينيون:

وأول محاولة علمية لتصنيف كتب السهروردي هي محاولة ماسينيون وفي تصنيفه جعل كتاب «هياكل النور» بين كتب الشباب، ولكننا سنرى أثناء عرضنا لمحتويات هذا الكتاب أنه يتضمن ـ وخصوصاً في الهيكلين السادس والسابع ـ بعض أفكار حكمة الإشراق وهو كتاب متأخر في نظر ماسينيون ويبدو أن مجموعة الكتب التي يسميها ماسينيون بمجموعة الشباب تتداخل في محتوياتها مع كتب العهد الأخير الذي يمثله كتاب حكمة الإشراق، فكتاب الألواح العمادية ويعده ماسينيون من كتب الشباب وقد أهداه المؤلف إلى عماد الدين قلج أرسلان أمير خربوط يتضمن إشارة إلى كتاب حكمة الإشراق الذي افترض ماسينيون أنه حرر في عهد متأخر عن كتب «مجموعة الشباب» وفضلاً عن ذلك فإن الأمير المُهدى إليه

كتاب الألواح تولى الحكم حوالي سنة ٥٨١هـ وفرغ السهروردي من تأليف كتاب حكمة الإشراق سنة ٥٨٢هـ ومات السهروردي حوالي سنة ٥٨٧هـ.

كل هذا يعني أن أي محاولة لتصنيف كتب السهروردي حسب تطورها التاريخي لا يمكن أن تساعد على دراسة المذهب بطريقة جديدة مثمرة.

تصنيف كوربان Corbin:

وأما كوربان فقد دافع عن الوحدة الأورجانيكية لمؤلفات «الشيخ» فوضع مؤلفاته في أربعة أقسام وأولها يشمل التلويحات والمقاومات والمطارحات وحكمة الإشراق، أما القسم الثاني فيتضمن الهياكل والألواح واللمحات الخ... وهو يرى أن كتب القسم الأول تشرح النظرية الإشراقية في مجموعها بينما كتب القسم الثاني تشرح نقاطاً مفصلة أو مكملة لكتب القسم الأول.

أما القسم الثالث من المؤلفات فهي تشمل الرسائل الصوفية التي تعرض المذهب بطريقة رمزية. ويضع كوربان في القسم الرابع الأدعية والصلوات التي يوجهها السهروردي إلى العقول والكواكب والنجوم وتسمى باسم الواردات والتقديسات. والواقع أن كتاب حكمة الإشراق هو الكتاب الرئيسي في مؤلفات الشيخ، أما الكتب والرسائل الأخرى فهي تعرض بعض الجوانب والمبادئ التي يتضمنها المذهب وتوجد كلها في حكمة الإشراق.

التصنيف التعليمي:

وإذا كانت مؤلفات السهروردي لا تخضع لأي تصنيف منهجي نظراً لتداخلها ولظروف تأليفها حيث أن الشيخ نفسه يذكر أنه كان أثناء كتابة حكمة الإشراق يحرر رسالة أو كتاب آخر ويعود لمتابعة تحرير كتاب حكمة الإشراق.

إذا كانت هذه المؤلفات تستعصي على التصنيف فيجب أن نحلل أقوال الشيخ نفسه التي توضح لنا كيف يمكن متابعة قراءة كتبه وهذا ما نسميه هنا «بالتصنيف التعليمي» ما دام المؤلف يهدف إلى غاية تعليمية من تحرير كتبه. والواقع أن

السهروردي يرتب للقارئ منهجاً ينصحه بأن يلتزمه حتى يخرج بالفائدة المرجوة.

والقارئ المستفيد ـ في نظر «الشيخ» ـ هو المريد السالك الذي يريد أن ينخرط في سلك الطريق الإشراقي مع «إخوان التجريد» فهو ينصحه بالبدء بقراءة «التلويحات» ثم المقاومات وأن يقرأ المطارحات قبل حكمة الإشراق وأن تكون قراءة حكمة الإشراق تحت إشراف معلم هو «القائم بالكتاب» وهو الذي يأخذ بيد المريد في الطريق الصوفي حتى يصل إلى ممارسة الرياضة الروحية وفي هذه الفترة أي أثناء قراءته لحكمة الإشراق يستحسن أن يطالع الرسائل الرمزية التي تصور له المبادئ المركزة التي يتضمنها «حكمة الإشراق» وهذه الرسائل ذات فائدة عظمى إذ أنها تستحث المريد على مضاعفة الجهد لكي يصل إلى مشاهدة الأنوار القاهرة.

أما كتاب هياكل النور فعلى الرغم من أن المؤلف لم يورد نصاً صريحاً بخصوص وضعه في القراءة، إلا أننا نستطيع أن نرتب له مكاناً خاصاً وذلك بحسب محتوياته، ذلك أنه يشتمل على عرض موجز لبعض الآراء الواردة في كتاب حكمة الإشراق ولذلك فمن المستحسن قراءته قبل الكتاب الأخير مباشرة.

وعلى الجملة فإن المؤلفات الفلسفية البحتة يجب أن تقرأ قبل حكمة الإشراق، ثم يتناول المريد الرسائل الصوفية أثناء قراءته لهذا الكتاب الأخير.

الفصل الثالث

التفسير الرمزي للهيكل

يطلق المؤلف على هذا الكتاب اسم «الهياكل» أو «هياكل النور» وكانت هذه التسمية شائعة عند الفرس والصابئة، فما مضمون هذه التسمية عنده؟ وهل يقصد أن يشير إلى أن آراءه تتفق مع آراء الفرس أو الصابئة؟

لقد قمنا بدراسة تحليلية لكل النصوص التي ورد فيها لفظ «هيكل» أو «هياكل» في مؤلفات السهروردي وقد انتهينا إلى أنه في معظم نصوصه يضع كلمة «هيكل» في مقابل «الجسم الإنساني»، وذلك فيما عدا المواضع التي يتكلم فيها عن هياكل الفرس التي أقاموها لعبادة النار.

ومن ناحية أخرى نرى المؤلف يقسم الكتاب إلى سبعة هياكل وكان الصابئة عبدة الكواكب السبعة يقيمون لكل كوكب هيكلاً خاصاً به في معابدهم، ولكل كوكب أيضاً يوم خاص به من الأسبوع وله صلوات خاصة وطقوس وملابس خاصة وأدعية يختص بها دون سواه من باقي الكواكب، فهل يمكن القول بأننا هنا أمام إشارة غير مباشرة إلى آراء صابئية انحدرت إلى السهروردي عن طريق الإسماعيلية؟

١ ـ يذكر لنا السهروردي نص حكمة الإشراق أن الله جعل على البسيطة سبعة مسالك وعند السابع تقر عين كل سيار، ويرى شارح حكمة الإشراق أن كلمة «بسيطة» هنا ترمز إلى الجسم الإنساني وأما المسالك السبعة فهي الحواس الخمسة الظاهرة والمتخيلة والقوة الناطقة. وفي نص آخر من حكمة الإشراق يسمى المؤلف

عالم «المثل المعلقة»: «الإقليم الثامن» ومعنى ذلك أنه الإقليم الذي يلي مباشرة المسالك السبعة في الجسم الإنساني.

والتأويل الباطني يجعل من هذه المسالك «معابد» تقودنا تدريجياً إلى عالم الأنوار ما دامت المعرفة كلها سواء أكانت حسية أم عقلية لا تتم إلا بضرب من الحضور الإشراقي.

وبذلك تصبح القوة الناطقة وهي الهيكل السابع المدخل إلى العالم الأعلى.

ب ـ ونجد السهروردي في نص من حكمة الإشراق يفصح بصراحة عن تأثره بموقف الصابئة فيوجه دعوات إلى النجوم والكواكب ويُحيي هؤلاء الحيارى الذين أسكرهم عشق عالم النور وجلال نور الأنوار والذين يحاكون في مواجيدهم «السبع الشداد» ويقصد بذلك الكواكب السبع بما فيها الشمس والقمر.

وإذا أضفنا مضمون هذا النص إلى ما ورد من أدعية موجهة إلى النجوم والكواكب في كتاب «الواردات والتقديسات» استطعنا أن نقرر أن هناك تأثيراً صابئياً في مذهب السهروردي.

حـ ـ والواقع أنه حسب نصوص السهروردي وحسب معتقدات الصابئة نجد أن الشعائر والطقوس المحسوسة الظاهرة التي يمارسها السالكون الإشراقيون أو أشياع دين عبادة النجوم، هذه الرسوم الظاهرة تتحول إلى رسوم وشعائر روحية تتجه إلى سماء باطنية روحية.

ولا شك ـ كما أشرنا في غير هذا الموضع ـ أن السهروردي تأثر بمذهب الصابئة عن طريق الإسماعيلية، وهؤلاء قد تأثروا بدورهم بهذا التيار فنراهم يرمزون للكواكب السبعة بسبعة أشخاص روحيين هم رؤساء العالم الروحاني وهم عندهم الأئمة السبعة.

وإذا كان الصابئة قد أقاموا معبداً مادياً مسبع الشكل لكي يقومون فيه بالصلوات والشعائر الموجهة إلى النجوم فهم قد جعلوا من هذا المعبد الواسطة التي تنتقل عن طريقها دعواتهم من الهياكل الإنسانية في الجسم الإنساني إلى الهياكل

الروحانية السماوية ذلك أن حواسنا الظاهرة والباطنة هي هياكل الألوهية على وجه البسيطة، ومن هنا نرى العلاقة الوثيقة بين موقف السهروردي وموقف الصابئة، ذلك أن السهروردي يجعل معرفتنا الحسية والعقلية مرتبطة بالأنوار العليا وعلى رأسها نور الأنوار بحيث تتم المعرفة بحضور إشراق ـ فكأن حواسنا وقوانا ما هي إلا «قوابل» لتلقي الإشراق من أعلى أو بمعنى آخر ما هي سوى «هياكل» لظهور أثر الأنوار الإلهية في عالمنا.

وعلى ذلك فإننا نرى عند السهروردي موقفا متأثراً بمذهب الصابئة يعرضه المؤلف بحذر ويوضع هذا الاتجاه إلى أي حد تأثر المذهب الإشراقي بالتيارات الصابئية والإسماعيلية.

الفصل الرابع

محتويات كتاب هياكل النور

يحتوي الكتاب على سبعة هياكل، ينقسم كل من الرابع والخامس منها إلى فصول.

أولاً: الهيكل الأول:

في هذا الهيكل يتكلم المؤلف عن الجسم ويذكر أن كل ما يمكن الإشارة إليه بالحس فهو جسم له طول وعرض وعمق، والجسم عنده لا يمكن أن ينقسم إلى ذرات أي إلى أجزاء لا تتجزأ ـ كما يقول المتكلمون.

ثانياً: وفي الهيكل الثاني

يعرض لمشكلة وجود النفس وتجردها وقواها:

أ ـ الأدلة على وجود النفس:

١ ـ الإنسان لا يغفل أبداً عن ذاته، ولكن قد يغفل أحياناً عن جزء من جسمه أو عضو من أعضائه، ولو كانت ذاته هي مجموع أجزاء جسمه لما كان شاعراً بها أثناء عدم شعوره بأي جزء من جسمه وإذن فالنفس وهي محل الشعور شيء آخر غير الجسم وأجزائه.

٢ ـ لما كان الغذاء يتحول إلى أجزاء من الجسم وكان معنى هذا أن الجسم يتخذ دائماً أشكالاً متغيرة وكنا لا نشعر بتغيرات مماثلة في نفوسنا. كان ذلك دليلاً على أن النفس شيء آخر غير الجسم.

٣ ـ النفس قادرة على إدراك معان مجردة فلا بد إذن من أن تكون ذات طبيعة مجردة.

ويذهب السهروردي إلى أنه يكفي أن نبرهن على أن النفس شيء آخر غير الجسم ليكون ذلك دليلاً على وجودها.

وإذن فالنفس الناطقة ذات مجردة عن الجسمية، أحدية غير منقسمة، مدبرة للجسم، وهي جوهر روحاني وماهية قدسية إذا طربت طرباً روحياً تكاد تترك عالم الجسم وتطلب عالم ما لا يتناهى.

ب ـ قوى النفس:

للنفس قوى ظاهرة وهي الحواس الخمسة، وباطنة وهي المخيلة والمفكرة والقوة الوهمية والذاكرة، ولكل من هذه القوى الباطنة مركز خاص بها في المخ.

وللحيوانات ثلاث قوى: المحركة والشهوانية والغضبية.

والروح الحيواني هو حامل هذه القوى المحركة والدراكة الذي يسري في الجسم بعد أن يكتسب «**السلطان النوري**» **من النفس الناطقة ويجب أن نميز ـ بهذا الصدد ـ بين الروح الحيواني والروح الإلهي وهو النفس الناطقة الذي هو ذات روحية**.

ح ـ طبيعة النفس ومصدرها:

ويعرض المؤلف في نهاية الهيكل الثاني لبعض الآراء الشائعة حول طبيعة النفس، ثم يذكر كيف اتصلت بعالم الجسم.

١ ـ يبدأ فيهاجم بشدة طائفة المؤلهة الذين يقولون إن النفس هي الله، فهم يجمعون النفوس كلها في نفس واحدة ويقولون إنها الله، وإذا كانت النفوس كلها واحدة فسوف تكون معرفة جميع الأفراد واحدة وسيعرف زيد ما يعرفه عمرو، والواقع يكذب ذلك إذ أن لكل فرد معرفة متميزة عن الفرد الآخر.

ثم إنه كيف يمكن لنا أن نسلم بأن إله الآلهة يكون سجيناً للبدن ولقواه ويكون بذلك معرضاً لآلام الجسم ورغائبه الحسية؟

٢ ـ ولا يمكن أيضاً أن تكون النفوس الفردية أجزاء من الذات الإلهية لأنه لما كان الله ليس بجسم فكيف يمكن أن ينقسم إلى أجزاء ومن ذا الذي سيقسمه؟

٣ ـ والنفس لا تسبق البدن إلى الوجود لأنه لو صح ذلك فما الذي ألجأها إلى مفارقة عالم القدس والحياة والنزول إلى عالم الموت والظلمات؟!

يرى السهروردي أن النفس الإنسانية تفيض عن واهبها في نفس اللحظة التي يوجد فيها جسم مخصص لها معد لاستقبالها، وهذا هو نفس موقف ابن سينا والموقفان معارضان تماماً لموقف أفلاطون.

ثالثاً: وفي الهيكل الثالث

يتناول السهروردي بعض مبادئ المشائين فيعرف الواجب والممكن والممتنع ويقرر أن هناك رابطة علية تنتظم الوجود بأسره، وهو بذلك يدافع عن الحتمية العقلية ويرد بطريقة غير مباشرة على مذهب الصدفة الأشعري، فما دامت العلة كاملة وجب ظهور المعلول إذ هناك رابطة ضرورية بين العلة والمعلول ولا تخرج الإرادة الإلهية عن نطاق هذه الحتمية بل تتمشى معها.

رابعاً: ويشمل الهيكل الرابع

خمسة فصول تلخص بعض مبادئ حكمة الإشراق:

١ ـ في الفصل الأول يبرهن على أن واجب الوجود واحد من جميع الوجوه فهو واحد لا شريك له إذ يمتنع وجود واجبين للوجود وهو أيضاً واحد في صفاته أي أن صفاته لا تتعدد ويكون لكل منها طبيعة قائمة بذاتها فتوجد كثرة في الذات الإلهية، والواجب أيضاً لا يسمى عرضاً أو جوهراً حتى يشارك الأعراض في نسبتها إلى الجواهر أو الجواهر في حقيقة الجوهرية.

٢ ـ ويتناول الفصل الثاني مشكلة جوهرية النفس وأنها ليست بعرض، فإنه لما كانت النفس صادرة عن نور الأنوار فهي لا يمكن أن تكون نوراً عرضياً فهي إذن نور قائم لذاته ظاهر لذاته.

٣ ـ وفي الفصل الثالث يلخص السهروردي نظرية الصدور التي قام عليها البناء المذهبي عند فلاسفة الإسلام: عن الواحد لا يصدر إلا موجود واحد أي نور إبداعي أول وهو منتهى جميع الممكنات وتستمر حركة الصدور، وتتمثل القوة الدافعة في الإيجاد في اتجاه العقول أو الأنوار اتجاهاً ثنائياً إلى ذواتها مرة باعتبار شدة نوريتها بالنسبة إلى ما تحتها ويعبر عن هذا الاتجاه بحركة «الإشراق» ومرة أخرى باعتبار ضعف نوريتها بالنسبة لقهرية نور الأنوار والأنوار العليا ويعبر عن هذا الاتجاه «بالمشاهدة»، وهكذا تكون الجهات العقلية ثنائية: طرف أشرف وطرف أخس، وفي هذا معارضة للجهات العقلية في نظرية الصدور المشائية التي تقوم على اتجاهات ثلاثة.

٤ ـ وفي الفصل الرابع يؤكد وجود عوالم ثلاثة: عالم العقول، وعالم النفوس، وعالم الأجسام.

فالأول يشمل الأنوار القاهرة التي تنكثر كلما تكثر فعل الإشراق.

ومن جملة هذه الأنوار القاهرة أبونا أو روح القدس، مفيض نفوسنا ورب طلسم نوعنا ويطلق عليه الفلاسفة المشاؤون «العقل الفعال» والسهروردي هنا يشير إلى نظرية «أرباب الأنواع» التي سيعرض لها بالتفصيل في كتاب «حكمة الإشراق».

وأما العالم الثاني فيشمل النفوس المدبرة للأفلاك السماوية والأجسام الإنسانية، وهنا نجد السهروردي يبتعد عن المشائين، وذلك لأن المشائين يرون أن النفوس الفلكية تصدر مباشرة عن العقول العليا بينما يرى السهروردي أنها تصد عن أرباب الأنواع السماوية من طبقة العقول العرضية.

والعالم الثالث هو عالم الجسم، وعلى رأيه هناك نوعان من الجسم:

(١) الأجسام العنصرية أي أجسام ما تحت فلك القمر.

(٢) الأجسام الأثيرية أي أجسام الأفلاك السماوية.

وهذه التقسيمات للعوالم يكررها السهروردي في مقدمة حكمة الإشراق وفي رسالة «اعتقاد الحكماء»؛ ولكن المؤلف يذكر لنا في نص آخر من كتاب حكمة

الإشراق أن تجاربه ومجاهداته الصوفية قد أظهرته على أن العوالم أربعة: ثلاثة منها هي التي أشار إليها في الهياكل وأما الرابع فهو عالم المثل المعلقة الذي يتكلم عنه بالتفصيل في تقسيمه للعوالم في هياكل النور على الرغم من أنه يشير إليه في الهيكلين السادس والسابع.

٥ ـ والفصل الخامس تلخيص لما ورد في الهيكل الرابع، ففي هذا الفصل يذكر السهروردي أن الموجودات كلها تستند في وجودها إلى وجود نور الأنوار، ويستعمل شيخ الإشراق التشبيه الرمزي مثل أفلاطون وأفلوطين فيشبه نور الأنوار بالشمس، وذلك من ناحية أن الشمس ـ على حسب رأي القدماء ـ لا نفقد شيئاً من شدة نوريتها رغم إشعاعاتها المستمرة فكذلك نور الأنوار.

خامساً: ويشتمل الهيكل الخامس على مقدمة وفصلين:

١ ـ وفي المقدمة يذكر السهروردي أن حركة الأفلاك الدائرية الإرادية هي علة حدوث الممكنات.

٢ ـ هذه الأفلاك السماوية ذات طبيعة خامسة أي أنها من الأثير وهي غير فاسدة ولكل منها معشوق أي نور قاهر. وتستمر الحركة ما دامت إشراقات الواحد مستمرة.

وإذن فالعشق هو أساس ديناميكية حركة الصدور كما هو الحال عند ابن سينا؛ وجود الأول يتم دون عوض، وهذا العالم هو أحسن العوالم الممكنة، وذلك لأن الحق لا يصدر عنه إلا الأشرف وتتكثر آثار الخيرية الإلهية بفضل تعدد القوابل. والسموات حية عاقلة وذلك لأنه لا موات في عالم الأثير وهنا يتفق السهروردي مع ابن سينا الذي يجعل الأجرام السماوية ملائكة، ولكن السهروردي يعود فيرفض هذا الموقف في «حكمة الإشراق».

٣ ـ وفي الفصل الأخير من هذا الهيكل يعرض السهروردي للقسمة الثنائية الأفلاطونية فيرى أن هناك نسبة زوجية تنتظم الموجودات بأسرها، فهناك دائماً علاقة تشتمل على طرفين: طرف أعلى يكون علة لموجود أخس، وهذا تعبير آخر عن قانون العلية الذي يسرى في جميع العوالم كما يرى السهروردي.

سادساً:

في هذا الهيكل وكذلك في الهيكل السابع يلخص السهروردي ما أورده بالتفصيل في المقالة الخامسة من الجزء الثاني من كتاب «حكمة الإشراق» عن المعاد والنبوة والأحلام.

يتناول أولاً مشكلة عودة النفس إلى عالم الأنوار الطاهرة، فيذكر أن النفس لا تحصل على كمالها إلا بعد مفارقتها للبدن، فبعد انفصال النفس عن البدن تصعد النفوس الفاضلة إلى عالم النور فتشاهد الأنوار القدسية وتحظى بمشاهدة أنوار الحق بينما تتجه نفوس الأشقياء إلى عالم البرازخ لتنال عقابها جزاء ما اقترفت من آثام، وهنا يشير السهروردي إلى عالم المثل المعلقة إشارة عارضة دون إسهاب وسيعرض له بالتفصيل في حكمة الإشراق.

سابعاً:

وفي الهيكل السابع يتكلم عن الأحوال والمواقف الصوفية ويلقن المريد إرشادات عملية لتهدية في سلوكه للطريق الصوفي وهو يذكر أن النفس يمكن لها أن تصبح نوراً كاملاً تطيعها العوالم وهنا نجد ترديداً لنظرية القطب عند الصوفية، وإذن فالإنسان الكامل يصبح عاملا كونيا، وقد أشرنا في موضع سابق إلى تفصيل هذا الموقف عند السهروردي الذي يعرض له في مقدمة «حكمة الإشراق».

الفصل الخامس

حالة نصوص كتاب
هياكل النور

١ ـ تناول عدة شراح كتاب هياكل النور بالشرح والتعليق، كما تناوله الوراقون بالنسخ في عصور مختلفة وهذا ما يفسر لنا وجود نسخ عدة مخطوطة من الكتاب في أنحاء متعددة من العالم.

وأهم شراح هذا الكتاب غياث الدين بن أسعد الدواني الإشراقي المذهب، وقد حاول الدواني أن يشرح كتاب الهياكل معتمداً على كتب الشيخ الأخرى وعلى الأخص على «حكمة الإشراق» وهو يورد نصوصاً كثيرة من هذا الكتاب ومن المطارحات واللمحات ويشير في بعض المواضع إلى رسائله الصوفية ويناقش موقف الشيخ، ويستطرد فيذكر آراء المشائين في المواضع التي عارضهم فيها شيخه وأحياناً نراه يهاجمه وينتقده في المواضع التي يبتعد فيها عن فلسفة أفلاطون.

ويلي هذا الشرح في الأهمية شرحان أقل ضخامة من شرح الدواني ويعتمدان عليه وهما: **شرح منصور بن محمد الحسيني وشرح محمد بن محمود العلوي الهروي** ثم هناك شرح تركي **لإسماعيل الأنقراوي**.

ب ـ وقد نشر كتاب هياكل النور في القاهرة سنة ١٣٣٣هـ وهذه النشرة غير علمية ومليئة بالأخطاء، وقد سمح الناشر لنفسه أن يعلق على نصوص الكتاب تعليقات بعيدة كل البعد عما يقصده المؤلف وعن المذهب الإشراقي في جملته،

بل إنه في كثير من المواضع يفسر آراء الشيخ بآراء ابن سينا، ولنا عود إلى هذا الموضوع في نشرتنا القادمة لشروح الكتاب والتعليقات التي ألحقها به الشراح وقد أوضحنا في الهوامش النقدية للنص كيف تصرف الناشر في تحقيقه تصرفاً أخرج به النص عن معناه الأصلي في كثير من المواضع.

هذا وقد نشرت ترجمة تركية للكتاب في القسطنطينية عام سنة ١٣٣٣هـ.

وكذلك نشر فان دن برج ترجمة هولندية للكتاب سنة ١٩١٦م.

نص هياكل النور

للشيخ شهاب الدين السهروردي المقتول



المقدمة

أما بعد ـ فأقول يا قوم، أيدنا بالنور، وثبتنا على النور، واحشرنا إلى النور، واجعل منتهى مطالبنا رضاك، وأقصى مقاصدنا ما يعدنا لأن نلقاك ظلمنا نفوسنا، لست على الفيض بضنين.

أسارى الظلمات بالباب قيام ينتظرون الرحمة، ويرجون الخير.

الخير دأبك اللهم، والشر قضاؤك، أنت بالمجد السني مقتضى المكارم، وأبناء النواسيت ليسوا بمراتب الانتقام.

بارك في الذكر، وادفع السوء، ووفق المحسنين وصل على المصطفى وآله أجمعين.

هذه رسالة «هياكل النور»، قدس الله النفوس القابلات للهدى، [والعقول الهاديات إليه].



الهيكل الأول

كل ما يقصد إليه بالإشارة الحسية، فهو جسم، وله طول وعرض وعمق لا محالة. والأجسام تشاركت في الجسمية، وكل مشتركين في شيء يلزم افتراقهما بشيء آخر، وما تمايزت به الأجسام هو الهيئات، ولازم الحقيقة لذاتها لا ينفك عنها، ووصف الشيء قد يكون ضرورياً له: كالزوجية للأربعة، والجسمية للإنسان وقد يكون ممكناً: [كالقيام والقعود له]، وقد يكون ممتنعاً: كالفرسية له. والذي لا يتجزأ في الوهم لا يجوز أن يكون في جهة، وإن يشار إليه، لأن ما منه إلى جهة أخرى، فينقسم وهما بديهة.

الهيكل الثاني

أنت لا تغفل عن ذاتك [أبَداً]، وما من جزء من أجزاء بدنك إلا وتنساه أحيانا، فلو كنت أنت هذه الجملة، ما كان يستمر شعورك بذاتك مع نسيانها، فأنت وراء هذا البدن وأجزائه.

طريق آخر:

بدنك أبداً في التحلل والسيلان، وإذا أتت الغاذية بما تأتي عند ورود الجديد الحاصل بين الغذاء لعظم بدنك ولو كنت أنت هذا البدن أو جزءاً منه لتبدلت أنانيتك كل حين، ولما دام الجوهر المدرك منك. فأنت أنت لا ببدنك. وكيف يكون ويتحلل وليس عندك منه خبر؟ فأنت وراء هذه الأشياء.

طريق آخر:

لا تدرك أنت شيئاً إلا بحصول صورته عندك، فإنه يلزم أن يكون ما عندك من الشيء الذي أدركته مطابقاً له، وإلا لم تكن أدركته كما هو. وعقلت معان يشترك فيها كثيرون، فإنك عقلتها على وجه يستوي نسبتها إلى الفيل والذبابة. [فصورتها عندك] غير ذات مقدار، لأنها تطابق الصغير والكبير، فمحلها منك أيضاً غير متقدر، وهو نفسك الناطقة، لأن ما لا يتقدر لا يحمل في جسم؛ فنفسك غير جسم، ولا جسمانية، ولا يشار إليها، لتبديها عن الجهة، وهي أحدية، صمدية، لا تقسمها الأوهام أصلا. ولما علمت أن الحائط لا يقال له أعمى ولا بصير، فإن العمى لا يقال إلا على من يصح أن يبصر، فالباري تعالى، والنفس الناطقة وغيرهما ـ مما سيأتي ذكره ـ ليست جسماً أو لا جسمانية، فهي لا داخلة العالم ولا خارجه، ولا متصلة ولا منفصلة، وكل هذه من عوارض الأجسام، تنزه عنها ما ليس بجسم.

فالنفس الناطقة جوهر لا يتصور أن تقع عليه الإشارة الحسية، من شأنه أن يدبر الجسم ويعقل ذاته والأشياء، وكيف يتوهم الإنسان هذه الماهية القدسية جسماً [وهي] إذا طربت طرباً روحياً، تكاد تترك عالم الأجسام وتطلب عالم ما لا يتناهى؟.

وهذه النفس الناطقة لها قوى من مدركات ظاهرة، وهي الحواس الخمس وهي: اللمس والذوق والشم والسمع والبصر، وقوى من مدد كانت باطنة، كالحس المشترك، وهو الذي يشاهد صور المنام معاينة لا على سبيل التخيل.

ومن الحواس الباطنة الخيال، وهو خزانة الحس المشترك وتبقى فيها الصور بعد زوالها عن الحواس؛ ومنها القوة الفكرية التي بها التركيب والتفصيل والاستنباط؛ ومنها الوهم، وهو الذي ينازع العقل [في قضاياه]، حتى أن المنفرد يميت في الليل يؤمنه عقله، ويخوفه وهمه، وهو يخالف العقل في أمور غير محسوسة حتى أن الذين يتبعون قضاياه ينكرن ما وراء المحسوسات، ولم يتفكروا أن عقولهم [بل أوهامهم] وتخيلاتهم ونفوسهم لا تحس، بل لا يحس من الجسم إلا السطح الظاهر دون سمكه.

ومن الحواس الباطنة، الحافظة، وهي التي يكون بها ذكر سائر الوقائع والأحوال الجزئية. ولكل من الحواس الباطنة موضع من الدماغ يختص به، ويختل ذلك الحس باختلاله، ومع سلامة ما سواه من الحواس، وبذلك عرف تغاير القوى واختصاصها بمواضعها.

وللحيوانات قوة شوقية ذات شعبتين: منها شهوانية جعلت لجلب الملائم، وغضبية خلقت لدفع ما لا يلائم، وقوة محركة تباشر، التحريك. وحامل جميع القوى المحركة والمدركة هو الروح الحيواني وهو جرم لطيف بخارى مولد من لطائف الأخلاط، وينبعث من التجويف الأيسر من القلب [وينبث] في البدن بعد أن يكتسب السلطان النورى من النفس الناطقة، ولولا [لطفه] ما سرى فيما يسري، إذا وقعت سدة تمنعه عن النفوذ إلى عضو، يموت ذلك العضو، وهو مطية تصرفات

النفس الناطقة، وتتصرف النفس في البدن ما دام، وإذا انقطع، انقطع تصرفها في البدن، وهذا الروح الحيواني غير الروح الإلهي ـ الذي يأتي في كلام النبوات، فإنه يعني به النفس الناطقة، التي هو نور من أنوار الله تعالى، القائمة لا في أين ـ من الله مشرقها، وإلى الله مغربها.

وجماعة من الناس لما تفطنوا أن هذه غير جسمية، توهموا أنها الباري تعالى، وقد ضلوا ضلالاً بعيداً فإن الله واحد، ولو كانت نفس زيد وعمرو واحد، لأدرك أحدهما جميع ما أدرك الآخر، ولاطلع كل الناس [على] ما أطلع عليه الكل، وليس كذلك.

ثم كيف تستأسر قوى البدن إله الآلهة، وتسخره رهين شهوات، وعرضة بليات في خبط عشوات؟

وجماعة توهموا أنها جزء منه، وهو زيغ؛ فإنه لما برهن على أنه ليس بجسم، فكيف يتجزأ وينقسم؟ ومن يجزئه؟.

وآخرون توهموا قدمها، ولم يعلموا أنها لو كانت كما زعموا متجردة، فما الذي ألجأها إلى مفارقة عالم القدس والحياة والتعلق بعالم الموت والظلمات؟ ومن الذي قهر القديم وحبسه؟ [وكيف جذبتها قوى الرضيع] حتى انجذبت من عالم القُدُس والنور؟، وكيف امتاز بعضها عن بعض في الأول، ونوعها متفق ولا محل ولا مكان، ولا فعل ولا انفعال قبل البدن، ولا هيئات مكتسبة كما يكون بعد البدن؟ ولا يصح أن تكون واحدة فتنقسم وتتوزع على الأبدان، فإن ما ليس بجسم لا يتجزأ، بل هي حادثة مع البدن إذا تم استعداده لقبولها.

ولما رأيت فتيلة مستعدة لتشتعل من النار من غير أن ينتقص منها شيء فلا تتعجب من حصول النفس الناطقة عند استعداد البدن من غير أن ينتقص من واهبها شيء.

الهيكل الثالث

الجهات العقلية ثلاث: واجب وممكن وممتنع، فالواجب ضروري الوجود. والممتنع ضروري العدم، والممكن ما لا ضرورة في وجوده ولا في عدمه.

والممكن يجب وممتنع بغيره. والسبب هو ما يجب به وجود غيره. والممكن لا يكون موجوداً من ذاته، إذ لو اقتضى الوجود لذاته كان واجباً لا ممكناً، فلا بد له من سبب يرجح وجوده على العدم، والسبب إذا تم يتخلف عنه وجود المسبب، وكل ما يتوقف عليه الشيء فله مدخل في السببية [سواء] كان إرادة أو وقتاً، أو مكاناً، أو مقارناً أو محلاً قابلاً أو غير ذلك، وإذا لم يوجد السبب بتمامه، أو ينتفي بعض أجزائه، لا يحصل الشيء ضرورة [وإذا حصل جميع ما ينبغي في وجود الشيء وارتفع جميع ما لا ينبغي] وجب الشيء ضرورة.



الهيكل الرابع

الفصل الأول

لا يصح أن يكون شيئان هما واجبا الوجود؛ لأنهما حينئذ [إن] اشتركا في وجوب الوجود، فلا بد من فارق، فيتوقف وجود أحدهما أو كليهما على الفارق، وما يتوقف على الشيء فهو ممكن الوجود. ولا يمكن أن يكون شيئان لا فارق بينهما، فإنهما يكونان شيئاً واحداً.

والأجسام والهيئات كثيرة، وقد بينا أن واجب الوجود واحد، فليست هي واجب الوجود، فهي ممكنة وتحتاج إلى مرجح وواجب الوجود لا يتركب من الأجزاء، ثم أنه لا تكون تلك الأجزاء [واجبة] لما بينا أن لا واجبين في الوجود.

والصفة لا تجب بذاتها وإلا ما احتاجت إلى محلها، فواجب الوجود ليس محلاً لصفات، ولا يجوز أن يوجد في ذاته صفات لها فإن الشيء لا يتأثر عن ذاته. ونحن إذا تصرفنا في عضو لنا، يكون الفاعل شيئاً والقابل شيئاً [آخر]. فواجب الوجود واحد من جميع الوجوه، له من كل متقابلين أشرفهما ـ وكيف يعطى الكمال من هو قاصر عنه والحق لا ضد له، ولا ند له، ولا ينتسب إلى أين، وله الجلال الأعلى، والكمال الأتم، والشرف الأعظم، والنور الأشد، ليس بعرض فيحتاج إلى حامل يقوم وجوده، ولا بجوهر فيشارك الجواهر في حقيقة الجوهرية.

دلت عليه الأجسام باختلاف هيئاتها، فلولا مخصصها لما اختلفت أشكالها ومقاديرها وصورها وأعراضها وحركاتها، ومراتب أركان العالم، ونظامها؛ ولو اقتضت الجسمية هيئاتها لما اختلفت فيها.

واسطة الهيكل

الفصل الثاني

الأجسام تشاركت في الجسمية، وتفاوتت في الاستنادة فالنور [عارض للأجسام]، ونورية الأجسام ظهور لها. ولما كان النور العارض قيامه بغيره، وليس وجوده لنفسه، فليس ظاهر الدلالة، فلو قام بنفسه لكان نوراً لنفسه.

ونفوسنا الناطقة ظاهرة لذاتها فهي أنوار قائمة، وقد بينا أنها حادثة ولا بد لها من مرجح ولا توجدها الأجسام ـ [إذ لا] يوجد الشيء ما هو أشرف منه ـ فمرجحها أيضاً نور موجود، فإن كان واجب الوجود فهو المراد، وإن لم يكن [فينتهي] إلى واجب الوجود بذاته، الحي القيوم.

والنفس قائم دلت على الحي القيوم، والقيوم هو ظاهر، وهو نور الأنوار، المجرد عن الأجسام وعلائقها، وهو محتجب لشدة ظهوره.

الفصل الثالث

الواحد من جميع الوجوه الذي لا يتكثر في ذاته اختلاف دوافع وإرادات موجبة لكثرة محوجة إلى السبب، كما أحوجت الأجسام إليه، يجب أن يكون فعله ـ بلا واسطة ـ واحداً فإن اقتضاء أحد الشيئين غير اقتضاء الآخر، فيلزم في مقتضى الشيئين ـ بلا واسطة ـ التكثر.

فأول ما يجب بالأول واحد لا كثرة فيه، وليس بجسم، فتختلف فيه هيئات مختلفة كالشكل، ولا هيئة فيحتاج إلى محل ولا نفس فيحتاج إلى بدن، بل هو قائم مدرك ولبارئه، وهو النور الإبداعي الأول، لا يمكن أشرف منه، وهو منتهى

الممكنات، وهذا الجوهر ممكن في نفسه، واجب بالأول، فيقتضى نسبته إلى الأول ومشاهدة جلاله جوهراً قدسياً آخر، وبنظره إلى إمكانه ونقص ذاته بالنسبة إلى كبرياء الأول جرماً سماوياً.

وهكذا الجوهر القدسي الثاني يقتضي بالنظر إلى ما فوقه جوهراً مجرداً، وبالنظر إلى نقصه جرماً سماوياً؛ إلى أن كثرت جواهر [مجردة مقدسة] عقلية، وأجسام بسيطة فلكية وعنصرية.

والجواهر العقلية [المقدسة] وإن كانت فعالة، إلا أنها وسائط جود الأول وهو الفاعل بها، وكما أن النور الأقوى لا يمكن النور الأضعف من الاستقلال بالإنارة، فالقوة القاهرة الواجبة لا تمكن الوسائط من الاستقلال لوفور فيضه وكمال قوته، وهو ما لا يتناهى بما لا يتناهى، فكل شأن فيه شأنه.

خاتمة الفصل

[الفصل الرابع]

اعلم أن العوالم ثلاثة:

(١) **عالم تسميه الحكماء، عالم العقل** [والعقل] على اصطلاحهم جوهر لا يقصد إليه بالإشارة الحسية ولا يتصرف في الأجسام أيضاً.

(٢) **وعالم النفس**: والنفس الناطقة وإن لم تكن جرمانية ذات جهة إلا أنها تتصرف في عالم الأجسام.

والنفوس الناطقة تنقسم إلى:

أ ـ [ما] يتصرف في السماويات.

ب ـ وإلى ما لنوع الإنسان.

(٣) **وعالم الجسم**: وهو منقسم إلى: أثيرى وعنصري.

ومن جملة الأنوار القاهرة، أبونا ورب طلسم نوعنا ومفيض نفوسنا، ومكملها بالكمالات العلمية والعملية، روح القدس، المسمى عند الحكماء بالعقل الفعال [وكلهم أنوار مجردة إلهية، والعقل أول ما ينتشئ به الوجود، وأول من أشرق عليه نور الأول، وتكثرت العقول بكثرة الإشراقات وتضاعفها بالنزول].

والوسائط وإن كانت أقرب إلينا من حيث العلية والتوسط، إلا أن أبعدها أقربها من جهة شدة الظهور وأقرب الجميع نور الأنوار.

ألم تر أن سواداً وبياضاً إن كانا في سطح واحد يتراءى البياض أقرب إلينا، لأنه يناسب الظهور. فالأول في العلو الأعلى والدنو الأدنى، فسبحان من هو على البعد الأبعد من جهة علو رتبته، والقرب الأقرب من جهة نوره النافذ الغير المتناهي شدة.

الفصل الخامس

وإذا كان الأول موجباً لما سواه، فإن كانت تلك الأمور قديمة، والمرجح دائم لوجوب وجوده فيدوم الترجيح، ولا تتوقف جميع الممكنات على غيره، وليس قبل جميع الممكنات غيره، ولا وقت ولا شرط ليتوقف عليه كما في أفعالنا، إذا أخرناها إلى يوم الخميس مثلاً، أو إلى مجيء زيد، أو تيسيراً له، إذ قبل جميع الممكنات ليس شيء من ذلك، وليس الأول تعالى بمتغير ليريد ما لم يرد، ويقدر بعد أن لم يقدر.

ولما علمت أن الشعاع من الشمس وليست الشمس من الشعاع وإن دام [بدوامها] فلا تتعجب من كون الحق قايماً بالقسط. وماذا يضر الشمس دوام شعاعها، أو بقاء ذارت في نورها؟

الهيكل الخامس

اعلم أن كل حادث يستدعى شيئاً حادثاً ويعود الكلام إلى السبب الحادث. فينبغي ان ينشأ إلى غير النهاية أسباب حادثة، بحيث لا يكون لها مبدأ، فإن المبتدأ الحادث عائد إليه الكلام والأمر الواجب التجدد لذاته هو الحركة، والذي يصح أن لا ينقطع من الحركات الدورية المستمرة التي تصلح أن تكون سبباً للحوادث ولا تنصرم، هو ما للأفلاك، وهي سبب الحوادث التي في عالمنا.

وإذا لم يتغير الفاعل الأول، فلا يكون سبباً للحركات الحادثات فلولا حركات الأفلاك ما يصح حدوث حادث [وحركات الأفلاك ليست طبيعية، فإن الفلك يفارق كل نقطة قصدها] والمتحرك طبعاً إذا وصل إلى حيث قصد وقف، إذ لا يهرب بالطبع عن مطلوبة. فليس إلا أن حركته إرادية.

الفصل الأول

مفيض حركة الفلك نفسه، فتحريكها [الجرم الفلك] تحريك اختياري، وتحرك جرم الفلك بتحريكها تحرك قسري، فإن أخذها جرم الفلك شيئاً [على حدة]، ونفسه شيئاً [على حدة] فتكون حركته [بسبب تحريك النفس] قسرية بالنسبة إلى النفس.

وإن أخذناهما معاً شيئاً واحداً فحركته حركة إرادية،[فهو حي مدرك].

والأفلاك لا حاجة لها إلى تغذ ونمو وتوليد، ولا شهوة لها، ولا مزاحم، ولا مقاوم لها في الوجود، فلا غضب لها، وليست حركتها [لأجل] السافل، إذ لا قدر له عندها. ثم نحن إذا تطهرنا من شواغل البدن، وتأملنا كبرياء الحق، والخرة الباسطة، والنور الفائض من لدنه، وجدنا في أنفسنا بروقاً ذات بريق وشروقاً ذات

تشريق، وشاهدنا أنواراً، وقضينا أوطاراً. فما ظنك بأشخاص كريمة الهيئة دائمة الصورة، ثابتة الأجرام، آمنة من الفساد، لبعدها عن عالم التضاد؟ فهي لا شاغل لها فلا ينقطع عنها شروق أنوار الله المتعالية، وأمداد اللطائف الإلهية ولولا أن مطلوبها غير منصرم، لانصرمت حركاتها، فلكل معشوق من العالم الأعلى يغاير معشوق الآخر، وهو نور قاهر، وهو سببه وممده بنوره، وواسطة بينه وبين الأول تعالى، من لدنه يشاهد جلاله، وينال بركاته، فينبعث من كل إشراق حركة، ويستعد بكل حركة إشراق آخر، فدام تجدد الإشراقات بتجدد الحركات، ودام تجدد الحركات بتجدد الإشراقات، ودام بتسلسلها حدوه الحادثات في العالم السفلى. ولولا إشراقاتها، وحركاتها لم [يحصل] من جود الله إلا [قدر] متناه. وانقطع فيضه، إذ لا تغير في ذات الأول تعالى ليوجب التغير فاستمر بجود الحق حدوث الحادثات بوجود دائم لعشاق إلهيين، يلزم حركاتها تقع السافلين وليس أن حركات الأفلاك توجد الأشياء، ولكنها تحصل الاستعدادات، ويعطى الحق الأول لكل شيء ما يليق باستعداده، وإذا لم يتغير الفاعل [لم يتجدد الشيء المعلول له إلا بتجدد استعداد قابله].

والشيء الواحد يجوز أن يتجدد أثره ويختلف بتجدد أحوال القابل، واختلافها لا لاختلاف حاله، وليعتبر الإنسان بفرض شخص لا يتحرك ولا يتغير، وتحرك إلى مقابله ـ ضرباً للمثل ـ مرايا مختلفة بالصغر والكبر والصفاء والكدورة، فيحدث فيها منه صور مختلفة بالصغر والكبر. [وكمال] ظهور اللون ونقصانه لا لاختلاف صاحب الصورة وتغيره بل للقوابل، فربط الحق جل كبرياؤه الثبات بالثبات، والحدوث بالحدوث، وهو تعالى المبدأ والغاية في ذلك الربط ليدوم الخير، وليثبت الفيض، ولئلا تتناهى رحمته، فإن جوده ليس بأبتر ولا بناقص ولا منقطع الطرفين، والجود إفادة ما ينبغي لا لعوض، فمن فعل لعوض يناله فهو فقير والغنى هو الذي لا يحتاج في ذاته وكماله إلى غيره والغنى المطلق هو الذي وجوده من ذاته [وهو] نور الأنوار، ولا غرض له في صنعه بل ذاته فياضة للرحمة، وهو الملك

المطلق، لأن الملك المطلق هو الذي له ذات كل شيء، وليس ذاته لشيء. والوجود لا يتصور أن يكون أتم ما هو، فإن ذات الحق لا تقتضي الأخس وتترك الأشرف الممكن، بل يلزم ذاته الأشرف فالأشرف، كما أن عكس النور أشرف من [عكس عكسه] [فالأتم] مما عليه الوجود محال والمحال لا يدخل تحت قدرة قادر. وإنما [يطول] حديث الخير والشر من يظن أن للعالي التفاتاً إلى السافل، ويتوهم أن ليس له تعالى وراء هذه المدرة المظلمة عالم آخر، وأن ليس له تعالى وراء الديدان خلائق أشرف، ولم يعلم أنه لو وقع على غير ما هو عليه للزم من الشرور واختلال النظام شيء آخر لا نسبة له إلى ما يتوهّمه الآن وهذا أقصى ما يمكن من النظام. والعالم الذي لا تتطرق إليه العاهات عالم آخر، إليه رجعى الطاهرات من نفوسنا، وليس أن العوالي القدسيين لا شغل [لهم] غير هتك الأستار، ورفض الأيتام عن حضانة مرضعات، وإيلام البريء، وغرس الجاهلية، وإغواء نفوس [والترفيه عن] جاهل، وتعذيب عالم، بل إنما شغلهم مشاهدة أنوار الله تعالى من كل مشهد، ويلزم حركاتها لوازم ضروريات تؤدى إلى ضرر، لو عادت إلى وضع ينفعهم لتضررت بها عوالم [أخر] على أنها لا تتحرك للسافلين [بل] لما يرتمى إليها من الأضواء القيومية، والأنوار اللاهوتية، و[ما] يغلب عليها من [الهيبة] في المواقف الإلهية، وسلطان الأشعة القدسية ما لا يمكنها من النظر إلى ذواتها [فضلا عما دونها] ومع ذلك فهي عالمة بكل جلي، وخفي، لا يعزب عن علمها وعلم باريها شيء.

ويدل على إثبات الأجرام السماوية وكونها غير مركبة من العنصريات، وأمنها من الفساد ما ذكر من وجوب دوام حركاتها ولو كانت مركبة لتحللت حركاتها فهي غير عنصرية أصلاً. ولما كان الحار خفيفاً لا يتحرك طبعاً إلا إلى الفوق والبارد ثقيلاً لا يتحرك إلا إلى أسفل، والرطب يقبل التشكل وتركه. والاتصال والانفصال بسهولة واليابس يقبلهما بصعوبة، والأفلاك غير منحرفة أصلاً [ولا متحركة على الاستقامة لا إلى المركز ولا عنه] بل حركتها دورية على الوسط فهي لا ثقيلة ولا

خفيفة ولا حارة ولا بارد، ولا رطبة ولا يابسة، فهي طبيعة خامسة. ولولا إحاطة السماء بالأرض لكانت الشمس إذا غربت لم ترجع إلى المشرق إلا بأن [ينثني] النهار، فالسموات كلها كرية محيطة بعضها ببعض حية ناطقة عاشقة لأضواء القدس، مطيعة لمبدعها، ولا ميت في عالم الأثير.

خاتمة الهيكل

[الفصل الثاني]

أول نسبة في الوجود، نسبة الجوهر القائم الموجود إلى الأول القيوم، فهي أم جميع النسب وأشرفها، وهو عاشق الأول، والأول قاهر له، غالب عليه بنور قيوميته قهراً يعجزه عن الإحاطة به والاكتناه بنوره، فاشتملت النسبة المذكورة على طرفين: محبة وقهر والطرف الواحد أشرف من الآخر، فيسري حال تلك النسبة في جميع العوالم حتى ازدوجت الأقسام، فانقسمت الجواهر إلى الأجسام وغير الأجسام؛ وغير الجسم قاهر له وهو معشوقه وأحد الطرفين أخس. وكذلك انقسم الجوهر المفارق للمادة إلى قسمين: قسم عال قاهر، وقسم نازل في المرتبة منقهر معلول [وكذلك انقسمت] الأجسام إلى الأثيري والعنصري، بل انقسم بعض الأجسام الأثيرية إلى قائد السعادات وإلى قائد القهر، بل النيرين اللذين أحدهما مثل العقل، والآخر مثل النفس، بل العلوي والسفلي والمتيامن والمتياسر، بل الشرق والغرب، بل الذكر والأنثى من الحيوان، ازدوج طرف كامل مع ناقص تأسياً بالنسبة الأولى، يفهم ذلك من يفهم قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ ولما كان النور أشرف الموجودات، فأشرف الأجسام [أنورها] وهو القديس الأب الملك، هورخش الشديد قاهر الغسق رئيس السماء، فاعل النهار، كامل القوى، صاحب العجائب، عظيم الهيئة الإلهية، الذي يعطي الأجرام ضوءها ولا يأخذ منها، هو مثال الله الأعظم، والجهة الكبرى، وبعده أصحاب السادات المعظمون، سيما السيد الأسعد صاحب الخير والبركات، جل من أبدعه، فتبارك الله أحسن الخالقين.



الهيكل السادس

أعلم أن النفس لا تبطل لأنها ليست ذات محل فلا ضد لها، ومبدؤها دائم، فتدوم به، وليس بينها وبين البدن إلا علاقة شوقية لا يبطل ببطلانها الجوهر. وتعلم أن لذة كل قوة إنما تكون بحسب كمالها وإدراكها، وكذا ألمها، ولذة كل شيء وألمه بحسب ما يخصه: فللشم ما يتعلق بالمشمومات، وللذوق ما يتعلق بالمذوقات، وللمس ما يتعلق بالملموسات وكذا نحوها، فلكل ما يليق به.

وكمال الجوهر العاقل الانتقاش بالمعارف، من معرفة الحق والعوالم والنظام، وبالجملة أمر المبدأ والمعاد، والتنزه [عن] القوى البدنية، ونقصه في خلاف هذا، وتتعلق لذاته وألمه بهما.

واللذيذ والمكروه قد [يحصلان] دون حصول لذة وألم كمن به سكتة أو سكر [شديد] لا يتألم بالضرب الشديد، ولا يلتذ بحضور المعشوق فالنفس ما دامت مشتغلة بهذا البدن لا تتألم بالرذائل، ولا تتلذذ بالفضايل لسكر الطبيعة. وإذا فارقت النفس البدن، تتعذب نفوس الأشقياء بالجهل، والهيئة الردية الظلمانية، والشوق إلى عالم الحس و[قد] حيل بينهم وبين ما يشتهون، سلبت قواهم، لا عين باصرة، ولا أذن سامعة، ينقطع عنها ضوء عالم الحس، ولا يصل إليها نور القدس.

[حيارى] في الظلمات، فانقطع عنها النوران، فيتسلط عليها الفزع [والهيبة] والهموم والخوف، لأنها من لوازم الظلمة، ولهذا من تغير مزاج روحه، وحصل فيه ظلمة وكُدورة، كأصحاب الماليخوليا، يتسلط عليه الفزع والهموم فكيف حال من وقع في الظلمات، مع اليأس عن التخلص.

[ومصاحبة] المؤذيات ومقارنة [الحسرات].

وأما الصالحات الفاضلات، فتنال في جوار الله، ما لا عين رأت ولا أذن

سمعت، ولا خطر على قلب بشر، من مشاهدة أنوار الحق، والانغماس في بحر النور، فيحصل لها الملكية والملكة، ولا تنقضي سعادتها، فترجع إلى أبيها ـ القائم بالسطوة على رؤوس مفاتيح الظلمة، شديد المرة القاصمة، صاحب الطلسم الفاضل جار الله الكريم، المتوج بتاج القُربة في ملكوت إله العالمين، روح القدس ـ كما تنجذب إبرة حديد إلى مغناطيس لا يتناهى.

وكما لا نسبة للقوى إلى النفس ـ فإن إدراك النفس أكمل وأشمل من إدراك القوى ـ ولا لأنوار الله والقديسين إلى المحسوسات فلا نسبة للذة إلى اللذة. والأول عاشق لذاته فحسب معشوق لذاته ولغيره، ولا يصل إلى لذة [هويته به] لذة. وسينكشف للنفوس الفاضلة ـ إذا أبرزت من ظلمة الهياكل إلى سنى الجبروت، وأشرقت على شرفات الملكوت ـ ما لا يناسبه انكشاف الأجسام للأبصار بنور الشمس. ومن أنكر اللذات الروحانية، فهو كالعنين إذا أنكر لذة الجماع.

الهيكل السابع

النفوس الناطقة من جوهر الملكوت، وإنما يشغلها عن عللها هذه القوى البدنية، فإذا قويت النفس بالفضائل الروحانية، وضعف سلطان القوى البدنية، وغلبتها بتقليل الطعام وتكثير السهر، تتخلص أحياناً إلى عالم القدس، وتتصل بأبيها المقدس وتتلقى منه المعارف، وتتصل بالنفوس الفلكية العالمة بحركاتها وبلوازم حركاتها، وتلقى منها المغيبات في نومها ويقظتها كمرآة تنتقش بمقابلة ذي نقش، وقد يتفق أن تشاهد النفس أمراً عقلياً، وتحاكيه المتخيلة بصورة تناسبه مناسبة ما، وتنعكس تلك الصورة إلى عالم الحس، كما كانت تنعكس منه إلى معدن التخيل، فتشاهد صوراً عجيبة تناجيها، أو تسمع كلمات منطوقة أو يتجلى الأمر العيني ويتراءى الشبح على تقدير المحاكاة، كأنه يصعد وينزل.

والمفارق [ذو الشبح] يمتنع عليه الصعود والنزول والتجرد عن لوازم الأجسام، بل الشبح ظل جسماني له يحاكي أحواله الروحانية. والمنامات أيضاً منها محاكاة خيالية لما شاهدت النفس، أعني المنامات الصادقة لا الأضغاث التي تحصل من دعابة شيطان التخيل.

وقد تطرب النفوس الناطقة طرباً قدسياً، فيشرق عليها نور الحق الأول؛ ولما رأيت الحديدة الحامية تتشبه بالنار لمجاورتها وتفعل فعلها فلا تتعجب من النفس استشرقت واستنارت، واستضاءت بنور الله تعالى، فأطاعتها الأنوار طاعتها للقديسين. وفي المستشرقين لأنوار الله رجال وجوههم نحو أبيهم، يلتمسون النور، فتتجلى لهم جلايا القدس؛ كما أنذرت الزورة [ذات الألق حيث أَلَقت، أن] هداية الله أدركت قوماً اصطفوا ينتظرون الرزق. فلما انفتحت أبصارهم، وجدوا الله مرتدياً بالكبرياء، اسمه فوق نطاق الجبروت، وتحت شعاعه قوم إليه ينظرون.

ويجب على المستبصر أن يعتقد [في] صحة النبوات؛ وأن أمثالهم تشير إلى الحقائق، كما ورد في المصحف، وكما أنذر بعض النبوات «إني أريد أن أفتح فمي بالأمثال». فالتنزيل موكول إلى الأنبياء، والتأويل والبيان إلى المظهر الأعظم الفارقليطي، كما أنذر المسيح «إني ذاهب إلى أبي وأبيكم، ليبعث لكم الفارقليط، الذي ينبئكم بالتأويل»، وقال: «إن الفارقليط الذي يرسله أبي باسمي، ويعلمكم كل شيء». وقد أشير إليه في المصحف حيث [قيل]: «ثم إن علينا بيانه».

ولا شك أن أنوار الملكوت نازلة [لإغاثة] الملهوفين وأن شعاع القدس ينبسط، وأن طريق الحق ينفتح، كما أخبرت الخطفة ذات البريق، ليلة هبت الهوجاء، والنير يدنو قبلته صاحبها، وهو يدنو من النير صاعداً، انفتح [له] سبيل القدس ليصعد إلى [رحاب] مبعث البرازخ الأكبرين.

ربنا آمنا بك، وأقررنا برسالتك، وعلمنا أن ملكوتك مراتب، وأن لك عباداً متألهين، يتوسلون بالنور إلى النور، على أنهم قد يهجرون النور للظلمات ليتوسلوا بالظلمات إلى النور، فيحصلون بحركة كحركات المجانين، قرة عين العقلاء؛ وعدتهم فأرسلت إليهم رياحاً مبشرات، لتحملهم إلى عليين ليمجدوا سبحانك وليحملوا أسفارك،[وليتعلقوا] بأجنحة الكروبيين، وليصعدوا بحبل الشعاع، وليستغيثوا بالوحشة والدهشة، لينالوا الأنس، أولئك هم الصاعدون إلى السماء، وهم القاعدون على الأرض.

أيقظ اللهم الناعسات من النفوس في مراقد الغفلات، ليذكروا اسمك، ويقدسوا مجدك، أكمل حصتنا من العلم والصبر، فإنهما أبوا الفضائل. ارزقنا الرضا والقضاء، واجعل الفتوة حليتنا، والإشراق سبيلنا، والله تعالى خير من أعان، ولرسوله ولآله الصلاة والسلام والتحية والرضوان.